

قصبة الأودية

(بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

قصبة الأودية بناها تاشفين المرابطي (ابن عذارى ج3 ص20 طبعة الرباط / الحلل الموشية (112) / ويرجعون بناءها إلى عبد المومن عام (545هـ) للإقامة بها في طريقه إلى قصر المجاز وكان جيشه يرباط في جبل العرض (لعلو) وهي منسوبة للمهدي بن تومرت (المشترك وضعا والمفترق صقعا للحموي) / تاريخ تطوان ج1 ص217).

- قواد القصبة في العهد العلوي : لما تمرد جيش الأودية على المولى عبد الرحمن بن هشام نقل أهل سوس منهم إلى رباط الفتح وأنزلهم بالمنصورية على شاطئ وادي النفيخ و أنزل قوادهم وأعيانهم بالقصبة التي صارت منذ ذلك تعرف بقصبة الأودية وتولى قيادتها إدريس بن حمان الجراري ثم ولده القائد الجيلاني ثم القائد حمان بن عبدالله المطاعي الأودي وبعد وفاته عادت القصبة إلى قيادة أهل جرار فأسندها المولى عبدالرحمن إلى القائد محمد بن إدريس الجراري حيث ظل أربعة أعوام ولي بعدها القائد محمد بن الشرقي الأودي ثم الطيب بن الجيلاني المطاعي المعروف بولد الخيمة ثم القائد الجيلاني بن الشرقي نجل القائد محمد بن الشرقي ثم محمد بن الحاج الأودي ثم علال بن القائد إدريس و القائد المهدي بن إدريس حيث ظل ثمانية أعوام ثم القائد قاسم بن بو عزة الزيراري الأودي ثم إدريس بن العربي الصويني الجراري.

- **قصر بني تاودة** في مصب أبي رفرق وهو قصبة الأودية (كتاب الجغرافية لمحمد بن أبي بكر الزهري (دمشق 1986) (ص192) وكان يوجد في محل المهديّة برج الأودية وعلّه عتيق من عهد الرومان أو هو قصبة تاشفين المرابطي.

(قصبة الأودية لأبي جندار) تسمى (قصبة الرباط الأثرية) خع 1047 / مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح لبوجندار الرباط 1345 ص39) ويقال بأنها كانت تحمل هذا الاسم قبل نقل الأودية إليها.

- **المهديّة المجاورة** لمدينة سلا (المن بالإمامة ص 444) هي قصبة الودايا وقد سماها عبد المومن مهديّة متاع بن مليح وبها دار الخليفة (ص446) / معجم البلدان - صبح الأعشى ج5 ص169).

وكان أبو حفص عمر المرتضى واليا من قبل السعيد علي بن المامون بن المنصور علي قصبة رباط الفتح فبويح خليفة بعد وفاة السعيد عام 646هـ (الاستقصا ج1 ص205) / الأودية وأسبانيا - مجلة

هسبيرس - عام 1955) وأحمد الريفي قائد العدوتين هو باني سور مولاي الرشيد بالأودية بالرباط. تاريخ الرباط (ص377) وقصبة الأودية برباط الفتح محاطة بسور سواء على طول نهر أبي رفرق

أم تجاه البحر ونحو السهل البري ولم يعد هنالك من جهة الوادي سوى قطعة جدار قرب ما يسمى بصقالة طولها نيف وثلاثون مترا، وارتفاعها نحو ثمانية أمتار وبجانبيها ما يدعى بمستودع مولاي

اليزيد (أي العلوي نجل السلطان محمد بن عبد الله) والكل مقام فوق الصخر بحجر غير منحوت، وهنالك بقايا أسوار أكثر أهمية تقع بين مقهى الأودية والبنائية الدائرية والمسماة (المدورة) التي تغمرها

مياه الوادي عند المد، أي من ناحية البحر والبر فإن السور الممتد مازال قائما ويبلغ معدل عرض السور مترين اثنين ونصف متر بينما يصل على مقربة من برج سوق الغزل إلى أزيد من ثلاثة أمتار

قد ظلي ظاهرها بدهن سميك وكان الحرس مبنوثا فوق نهج سوي قد مد على هذه الأسوار يذهب ويجيء لخفر الجوانب المشرفة منها. وليست كل هذه الأجزاء من صنع الموحدين لأن بعضها قد تجدد

بناؤه منذ نحو القرنين بفضل ما أولاه الملوك العلويون من عناية فائقة لهذه التحصينات، أما الأبراج التي تعلق الأسوار فبعضها ما زال ماثلا للعيان في روعته المهولة مصوبا فجواته نحو المحيط أو تجاه

المدينة. ويظهر في خصوص مادة البناء في سور قصبة الرباط انها وسط بين النهج المعماري المرابطي وبين

المعطيات الموحدية التي برز فيها مزيج من الملاط المقوى بالرمل والماء، فالأسوار التي يرجع تاريخها إلى عهد يوسف بن تاشفين وخلفائه قد بنيت - كالقسم المشرف على سوق الغزل - من

الحجارة غير المنحوتة والأجر أو من الحجارتين المبسوطة وغير المنحوتة، وقد استخدم الموحدون غالبا الحجارة وحدها دون تحميل أنفسهم عناء نحتها كما هو الحال في أبراج موحديّة أخرى غلب

عليها الطابع القرطبي وقد تأثروا هنا ببدائية سلفهم اللمتونيين، ومع ذلك فإن القصبه لم تكن تخلو من روعة وجلال.

وينفذ الزائر إلى (قصبه الأوداية) من ثلاثة أبواب أكبرها الباب الأثري المؤدي إلى سوق الغزل والثاني هو الباب الواقع بين الباب الأول وبين البرج، ويظهر أنه حديث العهد يرجع تاريخه إلى العصر العلوي، بينما يقوم الباب الثالث العتيق قبالة الجهة الشمالية الشرقية للمتحف. أما الباب الكبير فإنه في منتهى الروعة يبلغ طوله 38,60م وعرضه 16م، ويتراوح علوه بين 12 و 13م وتحتوي طبقاته الأرضية على ثلاث قاعات متداخلة وعلى طبقة أولى تحتوي على خمسة ممرات فوقها سطح يطل على مجموع القصبه، وتبلغ مساحة القاعة الأولى نيفا وسبعة أمتار في مثلها تعلوها قبة سامقة مع حنايا جانبية تليها قاعة ثانية في نفس الأحجام مقببة ومحلاة بمناجذ شبيهة بالجواهر المنظومة. أما الغرفة الثالثة فإنها عرض ويزدان الوجه الباطني للباب بعضادات أو أعمدة مربعة تحمل مساند ناتئة تعرف اليوم بطاولات الجدار ولا تزال بقايا التبليط الذي كان يغطي أرض القاعات، ويذكرنا تصميم باب القصبه بأحجامه وأشكاله المنعرجة بتخطيطات أبواب السور الموحد لرباط الفتح إلا أن ترتيب الغرف يختلف فيهما وقد لا يبدو جليا العامل الداعي إلى تحلية غرف ذات هدف يتسم بظاهرها بطابع عسكري إلا أن هنالك عناصر تدل على أن السمة العسكرية لم تكن هي البارزة في هذا التصميم لأن ضخامة مصراعي الباب مثلا لم تكن لتعين علي الصمود أمام ضربات الأكباش (وهي آلات حربية تتألف من عمود خشبي أو من حديد تدك بها الأسوار والأبواب) كما أن الممرات العلوية لم تكن تشكل غرفا حصينة للدفاع ولا توجد أية فائدة عسكرية في وفرة القاعات.

وهكذا يمكن القول مع (كايي - Caillé) بأن باب قصبه الأوداية ليست في مجموعها جهازا قويا للحماية والاستحصان بل هي لا تعدو كونها مدخلا عاديا لقصر من القصور تحيط به أسوار زيادة في الدعم ويرابط الجند في إحدى القاعات بينما يتخذ الخليفة من الغرفتين الأخريين قاعتين لاستقبال رعاياه أثناء مقامه على ضفاف أبي رقرق.

ويلاحظ أن اندعام الملاط المقوى قد يثير الدهشة بالنسبة للعصر الموحد الذي امتازت فيه الهندسة العسكرية بالاستعاضة عن الحجارة بهذا الملاط لا سيما وأن الأبواب الأخرى لمدينة تغايرها تماما من حيث مادة البناء.

وقد قيل من جهة أخرى بأن وفرة القباب في إفريقيا الشمالية ترجع لقلّة الأخشاب الفنية الرقيقة وقد فند (كايي) هذا الرأي خاصة باعتبار عصر الموحدين ويظهر أن اللجوء إلى القباب يهدف إلى تقادي هلهلة الأوقاس المعروضة المستطيلة. وقد أظهر النحاتون براعة في نقش بابي القصبه وهو نحت ثري منوع في صلب الحجر على مستويات عديدة تتخلله خطوط هندسية تحدد مختلف الأقسام وتحيط كتابات الخط الكوفي بالمشتبكات وبأفاريز الزخرف السعفي إلا أنها غير واضحة ويعلو الجميع إفريز من الحنايا المرصومة (أي المسدودة) وتقضي التقاليد بأن يكون الوجه الباطني للأبواب أقل تنسيقا من الوجه الخارجي إلا أن باب قصبه الأوداية تشذ عن هذه القاعدة فتبرز فيها كل العناصر الفنية التقليدية من خطوط هندسية وحنايا منفتحة وأفاريز وأشربة كتابية وأوقاس مفصصة (أي ذات قويسات طبقا للنف الأندلسي المغربي) وأوقاس حدوية (أي شبيهة بحدوة الفرس أو نعله) وتتجلى التخطيطات الكوفية في أروع مظاهرها وهي أجمل أنواع الخطوط وأوفقها للنقوش المعمارية ولذلك كانت تشكل أحد المجالي البارزة في الفن الأندلسي، أما الرسوم النورية أو الزهرية فإنها تشغل أيضا في هذه النقوش حيزا واسعا كما يوجد رسم في شكل حية قائمة على ذنبها انطلاقا من الأوقاس المفصصة في الوجهين معا ويتوافر هذا النوع من الرسم في الأبواب الموحدية الكبرى (باب كناوة (مراكش) وباب الرواح (الرباط) وستحلى بها أبواب شالة في العهد المريني، والملاحظ أيضا، أن الرسوم السعفية (أي التي تتخذ أشكال سعف النخل) تعتبر من العناصر الكلاسيكية في الترخيمات الموحدية وهي موجودة في جميع الأبواب المومنية إلا أنها أبرز وأوسع في باب القصبه خاصة في الوجه الخارجي للباب وهي من المقتبسات الراجعة إلى الفن القوطي قبل الإسلام.

وبالرغم عن ثراء النقوش من حيث الأشكال والتقسيم فإنها تظل واضحة المظهر خفيفة المس دون أي غلو ولا تشعيب بخلاف ما سيمتاز به الفن في عهد بني مرين من تكثف ووفرة. وهناك تناسب بين الترخيم في مختلف أجزاء الهيكل العام ينتم بالقوة والرشاقة معا بحيث لم يختلف الموحدون في ذلك عن تقاليد الفن الإسلامي شرقا وغربا.

- **المسار السياسي والاجتماعي للقصة** : حاولت دول أوربية احتلال القصة ولكنها فشلت بسبب الاختلاف بين الأوربيين ونظرا للحاجز الرملي الطبيعي من مصب النهر (barre). وقد وجه قواد الرباط سفراء إلى إنجلترا عامي 1627 و 1628 وعقدوا معاهدات واتفاقات عديدة ولم يكن إبرام المعاهدة يتم إلا بالتهديد ففي عشري يوليو 1629 نزل (رازيلي Le Chevalier de Razilly) فرضة أبي رقرق بأسطول يتكون من ثماني بواخر رابطة أمام القصة التي واجهتها بقذائف مدفعية أعقتها بثمانين قذفة عندما حاولت البواخر الفرنسية بعد ذلك بأيام مطاردة مراكب رباطية لدى دخولها إلى المرسى وهنا تبودلت رسائل مجاملة مع والي المدينة الذي أهدى للمبعوث الفرنسي رازيلي (12) من الشياه و (12) سلة عنب مسكي (وهو من خواص غرسة الرباط) ودواجن ولكن (رازيلي) وجه إنذارا للديوان فقبول برد عنيف من سلطة الرباط فقام الأسطول الفرنسي بمحاصرة القصة والعدوتين وحطم عدة مراكب قرصانية ثم قام المبعوث الفرنسي (Du Chalard) ففاوض رجال القصة وأندلسي الرباط ووقع معهم معاهدة هدنة بتاريخ عشري أكتوبر 1629 نصت على تحرير الأسرى الفرنسيين مقابل (265) ليرة للواحد ولكن هيجان البحر عرقل نقلهم إلى البواخر الفرنسية فعقدت معاهدة أخرى في ثالث شتنبر 1630 حصل (دوشالار) بمقتضاها على (120) أسير وقد استعمل (رينسبورغ) الإنجليزي نفس الأسلوب عام (1637) حيث كتب للوالي القصري يوم ثالث أبريل فلم يجبه فحاصر القصة واتصل بالعيشي وأمضى معه يوم (ثالث عشر مايو 1637) معاهدة لتحرير الأسرى الأنجليز وكان عددهم (سبعة) وقد اضطر (القصري) إلى تحرير ثلاثمائة أسير بعد مفاوضات موصولة مع أوربا وفي عام (1656) حاصر أسطول إنجليزي القصة بإمرة الأميرال بليك Blake فدمر عدة بواخر دون الوصول إلى اتفاق مع القصة لرفضه شراء الأسرى وعددهم أربعة وعشرون مع الاستعداد لتعويض من يملكهم فاستمر الحصار ولم يحرر الأسرى إلا في العام التالي ولكن هولندا لم تعتمد إلى التهديد لتحرير أسراها الذين كان عددهم أقل من أسرى فرنسا وإنجلترا وقد رابط الأميرال الهولندي (لورانس ريبيل Laurens Reael) في عرض ميناء الرباط عام 1627 للتزود بالماء.

وكثيرا ما كانت المفاوضات تتم بسهولة وكذلك تحرير الأسرى بدون تهديد مثل ما وقع عام 1627 حيث وصل المبعوث الإنجليزي (هاريسون) غير معزز بأسطول فحرر (الهورناشيروس) مائة وتسعين) أسير إنجليزي واقتبل السفير أحسن اقتبال ورافقه الأندلسيون بالميناء للحصول على العتاد وكثيرا ما كان الأسرى يحررون عن طريق الرهبان والتجار الإنجليز فقد قام الأب Athia عام 1659 بتحرير خمسين أسيرا في الرباط كانوا على وشك اعتناق الإسلام والواقع أن محاولات الاستيلاء على القصة بدأت قبل ذلك دون تعليل بقضية الأسرى لأن القصة كانت تشكل مركزا استراتيجيا يشرف على العدوتين وعلى مصب الوادي ففي عام 1619 كتب والي مازاغان المحتلة (Jorge Mascarenhas) إلى (فيليب الثالث) ملك الأسبان يخبره بضرورة إخضاع القصة لأسبانيا مشيرا إلى مفاوضته أحد الأندلسيين بهذا الصدد فتبين أن ذلك محض وهم.

وفي عام 1637 فكرت إنجلترا بعد نجاح حملة (رينسبورغ) في احتلال القصة فوجه كاتب الدولة الإنجليزي (وينديبانك Windebank) إلى الأميرال رينسبورغ يوم حادي عشر غشت يأمره باحتلال القصة إذا رضي الأندلسيون بتسليمها إليه دون حصول اختلاف ولم يكن الأميرال يتوفر على العتاد والرجال لتحقيق ذلك وقد زعم البعض بأن سكان القصة كانوا يفكرون في تسليمها حيث فاضها عام 1637 (Don Juan de Toledo) الذي ورد بحرا من المعمورة فوجه خمسمائة رجل لاحتلالها ولكن القائد القصري أوقفه عند حده وفي عام 1638 زعم (Rastin) أن الأندلسيين كانوا يفضلون الاستسلام لملك أسبانيا بدلا من العياشي كما زعم أن (القصري) كتب في نفس الوقت إلى الدوق مدينة Duc de Medina Sidonia لإبداء اضطراره إلى تسليم القصة إلى المسيحيين بسبب محنة محكوميه (Journal de G. Carteret p. 456) ويقال بأن نجل القائد القصري قبل المشروع ولكن القائد مراد تعرض (ص456) فتدخل (جوهن كارتري) John Carteret وأوعز للقائد بتسليمها لملك إنجلترا نظرا لكون أسبانيا تملك في المغرب عدة مدن هامة وهي - يقول المبعوث الإنجليزي - خطر على البلاد في حين ليس هنالك ما يدعو إلى الخوف من (شارل الأول) فلم يتم شيء من ذلك (ص459) وقد لاحظ (روبير بليك Robert Blake) أن الأندلسيين كانوا قد سئموا وملوا عام (1640) فكان فيهم استعداد لتسليم القصة لأب مسيحي يلتزم بنقلهم إلى مكان أمين لقضاء بقية أيام حياتهم ومنه بلاد إنجلترا نفسها وقد وجه عام (1641) مذكرة إلى البرلمان الإنجليزي حول احتلال القصة مع الأمن من

وطأة القراصنة والحصول على أرباح من ملاحات أبي رقرق ومنجم القصدير بالقرب منها والقيام بتجارة مشتركة مع الأهالي على حساب الفرنسيين والهولنديين ويزعمون أن الأمير عبد الله الدلائي اقترح هو نفسه عام 1660 على والي سبتة تسليم القصبية لملك أسبانيا (فيليب الرابع) بشرط مساعدته بواسطة الأسباني (Marquis de Los Arcos) على الانتقال إلى مدينة إفريقية بالشمال حسب اختياره ولكن أسبانيا كانت قد وقعت تحالفا مع الخضر غيلان فأوعز إليها بعدم القبول (دوكاستر - إنجلترا م. 3 ص 548) ويزعم (مويت في رحلته ص 14) أن الأمير عبد الله الدلائي اقترح على الإنجليز تسليمهم القصبية مقابل ألف قنطار من البارود وكمية من البنادق لمحاربة الخضر غيلان ولكن الوثائق الإنجليزية لا تشير إلى ذلك عدا أن الملك (شارل الثاني) وجه تعليماته يوم (حادي وعشري دجنبر 1663) إلى الكونت تيفيو Teviot لاحتلال القصبية إذا قبل الدلائي تسليمها وإلا منع الخضر غيلان من احتلالها ولعل الإنجليز ندموا على عدم مساندة (غيلان) الذي تربطهم به معاهدة حلف عام (1664) حيث كان من الممكن - كما يزعمون - أن يسلم لهم كلا من الرباط والقصبية ولعل كل الاقتراحات المزعومة الصادرة من الأندلسيين والدلايين لم تكن سوى محاولة للحصول على السلاح ضد بعضهم البعض فلذلك لم تنتج المفاوضات بإضافة عدم وجود القوة الكافية لدى المسيحيين لضمان حماية القصبية بعد احتلالها وقد أشار كوتيي (ص 244) إلى عثور كولان (Colin) بين (الوثائق الوطنية بباريس) على وثيقة تؤكد أنه منذ عام (1631) اقترح أندلسيو القصبية على ملك أسبانيا تسليمها إليه بشرط السماح لهم بالعودة إلى مدينة البلاطة (هورناشيروس).

وتشير بعض المصادر إلى مشروع معاهدة بين الأندلسيين وملك أسبانيا فيليب الرابع عام 1631م ومن هذه المصادر (مخطوطة أسبانية رقم 156 بالمكتبة الوطنية بباريس) وهذا المشروع كان يستهدف عودتهم إلى قرية (هورناشيروس) في (استرامادور) غربي الأندلس على بعد 35 كلم جنوب شرقي (مريدة) دون أن يسكن معهم بها غير الرهبان لتعليمهم شؤون الدين المسيحي مع حصولهم على ما كان لهم من امتيازات قبل النفي من الأندلس والتزموا بالإتيان بالأدلة على ما قاسوا من محن وموت في سبيل المسيحية ويلتزمون بالانتقال على نفقتهم في سفنهم القراصنية إلى اشبيلية كما يستردون أولادهم بعد عودتهم إلى أسبانيا وكانوا قد انتزعوا منهم قبل الطرد ووصفت القصبية بأنها أعظم حصن في بلاد بربريا فيها تموين سنتين و68 مدفعا بعضها من إنجلترا وبعضها الآخر اشتروه مما غنم للدون سبستيان مع المؤن والبارود مما يكفي ثلاث سنوات واستأذنوا ملك أسبانيا في نهب اليهود الأثرياء وتسليم أموالهم إليه وكذلك في إقامة حصن بفضالة لإيواء المراكب القراصنية وتسلم كل من قصبية الأودية وهذا الحصن إلى ملك أسبانيا مع كل ما لديهم من وثائق ديبلوماسية عن علاقتهم بإنجلترا ومرسليا (وكان في القصبية قنصل عنها) وهذا المشروع لم يتم وقد قدم "الموريسك" إلى ملك أسبانيا مشروعا آخر عام 1637 في هذا العدد.

والظاهر أن الخلاف الذي كان قائما بين (هورناشيروس) وأندلسي الرباط كان له ضلع في هذه المساومات للحصول على السلاح فقد لاحظ (دوكاستر في وثائقه حول الموريسك م 3 ص 17) أن الأندلسيين طردوا قائد القصبية عام (1627) وأسسوا ما سماه "جمهورية" (وهو محط افتراء لأن هذا الاسم لم يكن معروفا آنذاك لا في المغرب ولا بين الأندلسيين بل كانت معظم دول أوربا ملكية) وانتخبوا قائدا لمدة سنة يعينه ديوان أو مجلس من ستة عشر عضوا وهنا بدأ الصراع بين فريق الهورناشيروس وعددهم (ثلاثة آلاف) والخمسمائة ألف من الأندلسيين سكان المدينة فاحتدم الخلاف بينهما واتفقوا مع ذلك ضد سلا التي تمردت ضد المولى زيدان السعدي فلم ينجح في قمعها واعترف للرباط باستقلال شبه تام مع مشاركة قراصنة الرباط في حصيلاتها الناتجة عن الجهاد ضد السفن التجارية الأسبانية التي كانت تمخر عباب المحيط من الجزر الخالدات إلى ناحية كاستوني)

Gastogne وكان الكفاح جهادا في البداية فانقلب إلى قرصنة ضد العدو ولم يكن القراصنة من سلا كما تزعم المصادر الأجنبية التي تقصد بالسلاويين سكان سلا الحديثة (وهي في نظر المصادر العربية مدينة الرباط لأن سلا حديثة بالنسبة لشالة وقد وصف الإدريسي سلا بالحديثة قبل تأسيس مدينة الرباط بنحو نصف قرن (وهو تاريخ وفاته) وقد بلغ عدد الأسرى الذين اقتنصهم أندلسيو الرباط خلال ثمانين سنوات (سنة آلاف أسير) تم فداؤهم كلا أو بعضا في مفاوضات وانضافت مبالغ الفدية إلى مداخيل الديوانة التي بلغت (25 مليون (دوكا) طوال عشر سنوات (1620-1630) وقد "قرصن" الرباطيون خلال هذه المدة ألف سفينة كانت بضائعها تباع بالدلالة فكان البحار يتقاضى (30 جنيه والضابط (60).

والواقع أن جهاد الأندلسيين الذين كانوا يسمون (موريسك) من طرف الأسبان) انطلق أول ما انطلق من تطوان ضد الشواطئ الأسبانية وكان الأندلسيون عارفين بمخابعتها ومكائنها وكان جهادهم رد فعل ضد حركة التفتيش Inquisition القمعية وضد الجرائم الأسبانية المرتكبة ضد المسلمين واليهود خاصة في غرناطة ونواحيها وكانت المجاهدة (عائشة الحرة) زعيمة هذه الحملات منذ العهد الوطاسي أي آخر عهد بني مرين وكانت تتقن القطلانية وقد تزوجت حليف والدها ضد البرتغال السيد علي المنصري مجدد بناء تطوان وحكمت المدينة باسمه وناضلت بسفنها ورجالها غربي البحر المتوسط وقد ظلت مناوشتها ضد (الدون ألفونسو) حاكم سبته الحادثة البارزة في حوليات المؤرخين (مجلة هسبريس عدد XLIII) (222).

ونعني برباط الأندلسيين رباط الفتح حيث كانت دور السكنى قليلة لا تسع كل المهاجرين الهورناشيروس فنزل بها الأندلسيون وأسسوا مدينة جديدة خارج القصبه على ضفة الوادي حدودها شمالا الوادي مع سور والاستناد غربا على السور الموحد وإقامة سور جديد جنوبا وشرقا من (باب الحد) إلى (برج سيدي مخلوف) على الهضبة المشرفة على الوادي وهي نفس المدينة الأهلية الحالية تمتد في (واحد وتسعين) هكتار بإضافة مقبرة لعلو وقصبه الأودية وهي قسم من رباط الفتح الموحد الذي كانت مساحته (418) هكتار وانتشرت وراء السور الجديد عرصات وجنان كان الأندلسيون يزرعون فيها القمح والشعير والفول (Dapper p.141) وكروم العنب (كانت تدر آنذاك مائتي طن من الخمر كل سنة (Journal de Carteret)) وكانت المدينة مفصولة عن القصبه بساحة الكرم في القسم السفلي لسوق الغزل (راجع رسالة مازي Mazet إلى ريشليو في عاشر يبرابر 1631) ولعل إضافات عمرانية زيدت في المدينة الأندلسية لأن الحاج موسى العقاقيري قام عام (1660) خلال حصار القصبه بتحسين حفاف الساحة المعروفة بساحة الكرم Place du Figuier أسفل سوق الغزل) بمحجات مستديرة (دابر ص 141) فكان للمدينة تصميم منظم لم تعرفه الحواضر الإسلامية القديمة (كايي - تاريخ الرباط ص 246) وذلك بفضل مساهمة الفكر الأندلسي فكان في المدينة أربعة أزقة أساسية من الشمال إلى الجنوب و زقاقان اثنان عرضا من الشرق للغرب محصورة كلها بين السور الجديد وأبي رقرق.

المراجع الأجنبية

- Attestation de marchands et de Saletins, du 1er oct. 1643 (p.34) –
Note de Mohammed Vanegas pour les E.G, du 23 oct. 1629 (1er série T4 –
p. 235)
Lettres des gouverneurs de Salé (Rabat) à Charles 1er, du 18 avril 1627. –
Lettres des gouverneurs de Salé (Rabat) au conseil privé, du 16 mai 1627 –
(D. 1er s., p.91)
Lettres des E.G au caïd de Salé, du 28 sept. 1623 (D. T3 p 382) –
Lettre de Mohamed Ben Abd el Qader Ceron à Frédéric - Henri de –
Nassau, du 5 juillet 1629 (CD - 1er S., T4 p231.
Lettres des caïds de Salé aux E.G, de 3 août 1636 (p. 414) –
Lettres des caïds de Salé (R.) et de la Kasba aux E.G., du 2 oct. 1643 (T.5, –
p.43).
Lettres des caïds de la Kasba aux E.G., du 10 fév. 1651 (D, p.247). –
Lettre d'Aaron Quediro à Diego Nunez Belmonte, du 30 mai 1624 (D. –
p.503)

Requête de Youssef Biscaïno aux E.G, du 13 nov. 1624 (D. T. 4 p42). –
وهكذا يمكن القول بأن القصبه كانت تشكل حصنا إستراتيجيا للدفاع عن العدوتين وعن مصب أبي رقرق والمحيط وكان بها عام (1630) (ستة وسبعون) مدفعا استوردت من هولندا وإنجلترا والبرتغال توجد من بينها سبعون نفضا من الحجم الكبير موجهة أيضا ضد رباط الفتح وكان بها حامية من (1.500) جندي عام (1622) انخفضت إلى (1.300) عام 1631.
والظاهر أن موقع القصبه الاستراتيجي هو الذي كان سبب محنتها فقد ذكر محمد بن سعيد في رسالة وقعها معه أحمد نارفييز (Narvaez) إلى شارل الأول ملك إنجلترا بتاريخ يوليوز 1627 (دوكاستر

- س. أ. - إنجلترا م. 3 ص 25) بصدد أمل إنجلترا الحصول بمصب أبي رفرق على قاعة عسكرية ضد الأسباب ولكن أعضاء في حكومة لندن كانوا يرفضون التفاوض مع القراصنة. وقد استتب الأمن والاستقرار في العهد العلوي فاندرجت العدوتان في سلك الحواضر المغربية الخاضعة للمخزن ضمن قيادة مشتركة أو ثنائية وقد أولى كل من المولى الرشيد والمولى إسماعيل عناية أكبر للقصبة فوسعاها وحصنا الدفاع عنها وقد أنشئ آنذاك سور حديقة الأودية أمام (سوق الغزل) ورصيف الديوان وبنى المولى الرشيد قصرا جديدا يتصل بالقصبة ويشرف على البحر وقد أحيل إلى ثكنة عسكرية (قشلة) مجهزة بالمدافع والعتاد وقد اعتنى المولى إسماعيل بوادي أبي رفرق فتنازل عن حقوق المخزن في (صيد الشابل) وحبسه لصالح مساجد الرباط وسلا وأقام داخل القصبة ساحة تضم المتحف الذي استعمل - على ما يظهر - كمدرسة لتكوين البحارة (راجع العلويين في الجزء الأول من الموسوعة للمؤلف).

وإذا كان المولى الرشيد قد عزز القصبة بحامية عسكرية من (ثلاثمائة) رجل فإن المولى إسماعيل الذي قام بتجميع عبيد المخزن قد أنزل بعضهم في القصبة حوالي (1098 هـ / 1686م) حيث اختار منهم قائدا للقصبة التي احتكر العبيد السكنى بها وببأقي القصبات الإسماعيلية المنتشرة على طول البلاد وكان بالقصبة وتكنيتها (ثلاثون) مدفعا علاوة على المدافع والأنفاض الموجهة إلى ناحية البحر دفاعا عن الساحل ولكن ذلك لم يمنع البواخر الفرنسية من مطاردة سفن القراصنة التي كانت تأوي إلى مصب الوادي وراء الحاجز الرملي (barre) الذي كان يمنع السفن الكبرى من مطارتها وكان (مويت) أحد الأسرى العاملين في بيت قائد القصبة وكان سوق النخاسة يعقد تحت أسوار القصبة قرب الباب لبيع الأسرى المسيحيين ولم يكن عدد سكان العدوتين آنذاك يزيد على عشرين ألف نسمة (حسب بيدو ص 28 (Pidou de St Olon)).

وإذا استثنينا فترة سادتها الفوضى والاضطراب في عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل طوال ثلاثة عقود من السنين عادت فيها آيت الأريعين إلى الوجود فإن عهد المولى محمد ابن عبد الله أصبح عهد استقرار وازدهار صارت القصبة خلاله حصنا منيعا للذب عن حوزة حاضرة أدرجها السلطان محمد الثالث ضمن الحواضر السلطانية (مراكش وفاس ومكناس) فبنى بها قصرا وجهاز مشوره ووجه سفيره عبد الكريم ركون عام (1181 هـ / 1767م) إلى أوربا لشراء قطع المدافع والعتاد والبارود مع استخدام خبراء قصد إحياء (دار صناعة السفن (في المريسة بسلا) وكان من بين الخبراء الأتراك (الحاج سليمان التركي) الذي تكفل بتكوين جنود الرباط خصص (80) منهم لممارسة المدفعية (الطبيعية) (حسب تاريخ الضعيف) وقد تزايد عدد حماة القصبة فأناف علي ألفين اثنين من الرماة كانوا يتقاضون أجره قدرها متقال واحد في الشهر (ما يعادل 7,5 فرنك) وهي أكبر حامية بالنسبة للشعور إذا أضفنا إليها عدة آلاف من العبيد المقيمين في (أكدا) وقد دعم السلطان أجهزة القصبة فبنى (صقالة) أشرف عليها قائد المدينة (علي مرسيل) وكذلك (برج الصراط) واستورد مدافع من (جبل طارق) (كتاب Temprière ص 494) وحذف الممر المكشوف بين القصبة والقشلة وهدم القصر الموحي بالقصبة وأنشأ خزينة لأداء أجور جنود شعور المحيط أودعت في قاعات باب القصبة (راجع بيت المال).

وقد وصف لنا صاحب كتاب (منظر الفرضة والميناء ومدينة سلا) (La vue de la rade, du port et de la ville de Salé) القناطر المعلقة التي كانت تنقل مياه الشرب والسقي إلى القصبة والمدينة وقد تعددت هذه القناطر المعلقة المنفجرة من عيون مثل (عين بركة) بسلا وكانت معظم القناطر على مستوى الأرض أو على جدار محمول فوق أقواس مثل الأقواس التي كانت تصل القشلة الرشيدية بالقصبة (حسب مويت) وقد نقل المولى عبد الرحمن بن هشام إلى (قصبة الأودية) (راجع الأودية) (عسكر فاس عام 1249 هـ / 1833م).

وكانت هنالك أبراج أخرى ومحارس أنشأها القراصنة وقد عثر عام 1915 على ما بدرج القراصنة وهو سرداب جوفي على بعد أربعة أمتار جنوب شرقي (برج القراصنة) يقع مدخله على الواجهة الجنوبية الغربية بموازاة الجدار المشرف على النهر وقد ظهر لبعض الاختصاصيين أن هذه الآثار ليست سوى أنقاض لدار والي القصبة ومعنى ذلك أن تأسيسها يعود إلى عهد هجرة الأندلسيين لاسيما وأن (مويت) الذي عاش في هذا الحي لم يشر إلى وجودها فيما كتبه عن (العهد الرشيدي) والإسماعيلي كما فعل بخصوص قصر الرشيد وقد لاحظ (كايي) ذلك في كتابه (ص 272).

أما بخصوص سكنى اليهود في القصبية فإن المصادر الأجنبية لا تشير إلى وجود إسرائيليين بين مهاجري الأندلس إلى القصبية في القرن الخامس الهجري حيث لا تتحدث المصادر العربية والأجنبية إلا عن الهورناشيروس الذين هاجروا البلاطة (Estramadour) بالبرتغال ولعل جانبا من المهاجرين قد وصل إلى القصبية بعد أن ضيق عليهم الأسبان وقلصت المجامع الكنسية في طليطلة عامي 589 و633هـ بمقتضى (قانون الأحوال الشخصية) الصادر آنذاك من حرية اليهود الدينية مع حرمانهم من شغل مناصب عمومية فانضموا إلى صفوف المهاجرين المسلمين في (قشتالة) وكان سقوط (طليطلة) في قبضة الأسبان عام (496هـ / 1102م) (نفع الطيب ج 6 ص 120) للمرة الثانية بعدما حررها المرابطون عام (483هـ / 1090م) (الاستقصا ج 1 ص 120) وهذه الهجرة راجعة إلى الحرية التي نعم بها الأندلسيون في المغرب ومن بينهم الجالية اليهودية التي عاشت حرة ءامنة في ظل الإسلام وربما اختار بعضها ضفاف أبي رقرق مركز التبادل مع أوربا لا سيما (البندقية) منذ ذلك العصر الذي كان اليهود يتعايشون مع المسلمين في أحياء مشتركة حيث لم تؤسس الغوطات اليهودية (الملاح) إلا بعد سقوط غرناطة وتكاثر اليهود اللاجئين إلى المغرب وقد ظل القضاء اليهودي في يد (الأخبار) في عهدي المرابطين والموحدين وكذلك القانون اليهودي للأحوال الشخصية وقد كان اليهود مع ذلك عرضة لتعسفات عابرة بكل من الأندلس والمغرب حيث قام العالم إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي الإلبيري بحملة ضد يهود غرناطة عام (459هـ / 1067م) كما فعل محمد بن عبد الكريم المغيلي في القرن العاشر الهجري بالمغرب ضد يهود المملكة إلا أن علماء فاس قاموا ضده منتصرين لمواطنيهم اليهود في انتفاضة ساهم فيها بعض شيوخ جامع القرويين مثل الإمام (ابن زكري) أكبر علماء عصره و عبد الله بن أبي بكر العصنوني (927هـ / 152م) وقد أدى ذلك إلى طرد المغيلي من فاس لمجرد موقفه العدائي من اليهود (الإعلام للمراكشي ج 4 ص 125 - طبعة الرباط 1975).

وكان ملوكنا يرغبون قبل بناء (ملاح وقاصة) بالرباط في إسكان اليهود في القصبية تحصينا لهم فرغبوا عن ذلك نظرا للأخطار التي كانت تهدد القصبية وقد أنكر ذلك (كايي) في تاريخ الرباط واهما أن السلطان لم يكن لينصاع ويترك الاختيار لليهود في هذا المجال وهي حجة واهية لأن السلطان حبس من ماله الخاص حيا بكامله في (وقاصة) لبناء هذا الملاح.

ويظهر أن اليهود هاجروا أول الأمر إلى سلا لأنها كانت بعيدة نوعا ما عن أخطار القصبية ولذلك كان يهود سلا هم الذين يقومون بدور السمسرة في بعض الصفقات التجارية مع أوربا فهذا (كيريدهارون) اليهودي البرتغالي الذي كان يقيم بمدينة سلا قد توسط عام (1624) لقائد القصبية والأميرال مراد الرايس لشراء مجاذيف ورماح وبارود مدفعي و (90 قنطارا من كويرات القذائف Lettre d'Aaron Querido à Diego Nunez, Belmonte, du 30 mai 1624) (راجع دوكاستر - س.أ. - هولندا م. 4 ص 503).

وقد حصل عام (1629) على إذن من هولندا لاستيراد (30.000) رطل من كويرات القذف و(6000) رطل من البارود لحاميات القصبية لا للقرصنة.